مجلة تمثلات/ جامعة مولود معمري تيزي وزو المجلد 09 العدد02 السنة 2025
ص61. – ص 78 ISSN:2437-0622 EISSN 2710-8678

ثنائية المركز والهامش في رواية «نادي الصنوبر» للروائية الجزائرية ربيعة جلطي *The duality of center and margin in the novel « Nadi al-sanawbar » (the Pine Club) of the algerian novalist, Rabia Djalti*

ط.د/ حنان عبد العالي*

(1) طالبة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة،

hananeabdelali26@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/06/02 تاريخ القبول: 2025/05/02. تاريخ النشر: 2025/10/24

ملخص: نهض مشروع هذه الدراسة من أجل الوقوف عند مصطلح المركز والهامش في الأدب عامة والرواية منه تحديدا انطلاقا من رواية " نادي الصنوبر" (الطبعة الثانية 2017م) للروائية الجزائرية "ربيعة جلطي" هذه الرواية التي حاولت الكاتبة من خلالها إسماع صوت المهمشين في المجتمع الجزائري عن طريق زحزحة هذا الهامش نحو المركز. وعليه فهل استطاع هذا الهامش من فرض وجوده وتمكن من أخذ مكان مغاير له أم أنه مازال قابعا تحت سلطة المركز وهيمنته.

الكلمات المفتاحية: المركز. ؛ الهامش ؛ ثنائية ؛ نادي الصنوبر.

Abstract : *This study purports to explain the terms "center" and "margin" in the literature in general, and in the novel in particular, through Rabia Djalti's novel « Nadi al-sanawbar » (The Pine Club) " (in its 2nd edition 2017). In this novel, the writer tried to make the voice of the marginalized Algerian people heard by pushing this margin towards the center. We, thus, wonder, if this margin has actually succeeded to impose itself and take a different position, or if it has continued to surrender to the authority and domination of the center*

Key- words : ***center ; margin ; duality ; Rabia DJELTI ; Pine Club***

*المؤلف المرسل

1. مقدّمة:

تعد الدراسات الثقافية حقلا دراسيا ما بعد تخصصاتي «يتميز بضبابية الحدود بينه وبين باقي الحقول المعرفية الأخرى، إلا أن الأكيد أن الدراسات الثقافية استعارت تصورات مهمة من ميادين نظرية نقدية أخرى كالماركسية والبنيوية وما بعد البنيوية والتحليل النفسي.» [1]، ما جعلها تعتمد على جملة من المصطلحات النقدية في تحليلها للنصوص الأدبية مثل مصطلح: النسق الثقافي والنسق المضمر،السلطة، المعرفة، المركز، الهامش... وكثيرا ما كانت هذه المصطلحات في شكل ثنائيات ضدية مثل ثنائية: (السلطة والمعرفة) (المركز والهامش).

لعل ثنائية المركز والهامش (Centre and Margin) من بين الثنائيات الضدية الأكثر تداولا في حقل الدراسات الثقافية؛ حيث إن هذه الأخيرة قد سعت «منذ بداية الستينيات إلى استجواب منظومة القيم والأعراف السائدة في الثقافة الغربية، وقد توصلت بعد البحث العميق في إشكاليات الفكر الغربي إلى أن الثقافة تتأسس في سيرورتها على قانون الاستبعاد والاستقطاب»[2]، ونحن « إذا ما تصفحنا مسارات ثقافتنا العربية وتحولاتها عبر التاريخ فإننا واجدون هاته الثقافة موزعة بين نسقين ثقافيين محوريين: سيادة المركز وهامشية المحيط»[3]، وعليه فإن لكل ثقافة من ثقافات الأمم – سواء كانت غربية أم عربية– مركزا يحكمها وهامشا يحيط بها.

ولما كان الأدب انعكاسا للواقع و«أكثر تعبيرا عن الجماعة الإنسانية سواء المركزية منها أو المهمشة»[4]، فقد ارتبط بقضايا المركز والهامش وصار لسان وصوت المهمشين، وأصبحت بذلك الرواية العربية المعاصرة تحديدا الجنس الأدبي الأكثر انفتاحا على نماذج الهامش وبخاصة الرواية الجزائرية المعاصرة التي غدت« جريدة المهمش بامتياز»[5] ؛حيث سمحت للهامش بأن يحتل مكانة هامة في متنها.

لعل الروائية الجزائرية ربيعة جلطي* واحدة من الروائيات العربيات المعاصرات اللاتي استطعن استثمار ما هو مهمش ومغيب في الساحة الأدبية، يتجلى لنا ذلك في روايتها "نادي الصنوبر" (2017)[6] التي اقتحمت من خلالها عوالم الطوارق هذه الفئة المنسية من المجتمع الجزائري والمهمشة في قلب الصحراء.

لذا ستحاول هذه الدراسة كشف العلاقة بين ثنائية المركز والهامش في الأدب، وعن تجليات الهامش في رواية نادي الصنوبر تحديدا. ذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما هو المركز؟ وما هو الهامش؟ ما هي العلاقة بينهما؟ كيف تجلى الهامش في رواية "نادي الصنوبر" للروائية ربيعة جلطي؟.

2. مفهوم المركز والهامش (Centre and Margin):

أجمع الدارسون على أن (المركز والهامش) « ثنائية قديمة ترتبط بالدائرة، ذلك الشكل الذي يعد من أقدم الأشكال الهندسية وأقدسها و أكثرها اكتمالا،وله تجليات متعددة ثقافية وأنثروبولوجية»[7] ؛ ولقد امتدت فكرة (المركز والهامش) الخاصة بالدائرة إلى ميادين عديدة منها: الميدان الأدبي أين ارتبطت « – في أدبيات الحداثة وما بعد الحداثة– بثنائيات ضدية متعددة؛ مثل: الذكر والأنثى، الألمان واليهود، المواطن وفاقد المواطنة، المحلي والأجنبي، الأبيض والأسود، والإنسان والحيوان...، ولا تعدو تلك الثنائيات أن تكون تنويعا على ثنائية أساسية هي ثنائية (الذات والآخر)»[8]. لعل ما يجب التنبيه إليه هو أن «هذه الثنائية لا ينفك طرفاها، فوجود أحدهما يستلزم وجود الآخر، فإذا كان المركز مسؤولا عن صنع الهامش بإيقاع فعل التهميش عليه، فإن الهامش وجوده ضروري لوجود المركز وإبرازه»[9] ،وعليه فالحديث عن أحدهما يستدعي بالضرورة وجود الآخر. بالإضافة إلى أن مصطلح (المركز الهامش) من أكثر المصطلحات غموضا،كونه لا ينتمي إلى مجال محدد، فإننا نجده في شتى المجالات: السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وحتى الأدبية مما جعله يتخذ عدة « تعريفات اصطلاحية متباينة بحسب مجال المهتمين به »[10]، وإثارة للجدل لأن « المحاولات الرامية لوضع تعريف لنموذج المركز/الهامش تخلد هذا النموذج. وفي الواقع منظري ما بعد الكولونيالية** عادة ما يستخدمون النموذج للإيحاء بأن تفكيك مثل هذه الثنائيات يؤدي وظائف أكثر من مجرد التأكيد على استقلالية الهامش»[11].

ترجع ثنائية (المركز والهامش) إلى دراسات ما بعد الكولونيالية « التي لا تعني مخاصمة الكولونيالية***، وإنما تعني الوعي بالثقافات الأخرى، بالهويات والاتجاهات والكتابات التي أريد لها أن تندثر أو أن تطمس، لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى، أي على أساس أنها (كتابات الرد)

القادمة من المستعمرات، حاملة معها هويتها وشخصيتها وتنقياتها في خطاب المركز: فالهامش يستعيد نفسه وحضوره في داخل المركز الذي سرعان ما انشغل بثقافات الأطراف.ليجد نفسه مضطرا إلى الانتباه إليها.والإصغاء لها»[12].

يتخذ (المركز والهامش) « موضعه في أي محاولة لتعريف ما حدث بالنسبة لتمثيل الشعوب وعلاقتها كنتيجة حتمية للفترة الاستعمارية ولم يكن ممكنا للكولونيالية أن توجد على الإطلاق إلا من خلال افتراض وجود مقابلة ثنائية ينقسم إليها العالم»[13]. وقد انطلقت الدراسات ما بعد الكولونيالية في ذلك من فكرة التقويض (Deconstruction)**** عند جاك ديريدا (Jacques,Derrida). كما استفادت من دراسات التابع (SubalternStudies)***** التي عنيت بالفئات المهمشة أو التابعة في المجتمعات؛ حيث « أعادت الاعتبار للهامش بإدراجه ضمن مساحة التفكير والنقاش عبر مجموعة بحوث اهتمت بدراسة أوضاع المهمشين »[14].

من خلال ما سبق نلاحظ أن موضوع حقل الدراسات الثقافية لا يتعدى «الثقافة الشعبية المهمشة أو اللامقول في الخطاب المهيمن على الثقافة العليا في مقابل الثقافة الدنيا»[15]. وعليه فقد كان هدف الدراسات الثقافية هو تفكيك ثقافة المركز،رغبة منها في تعزيز ثقافة الهامش وتعرية ما يعانيه المهمش جراء ممارساتها .

بما أن الرواية العربية المعاصرة غدت أكثر جنسا أدبيا قادرا «على مساءلة قضايا المجتمع بكل أبعاده التاريخية والدينية والسياسية، والثقافية، إضافة إلى قدرتها على الولوج إلى الأعماق القصية من حياة الفرد العربي»[16] فقد استثمرت صور المهمشين واتخذت من هذا الهامش والمسكوت عنه موضوعا لها، محاولة من خلاله «تفكيك أفكار المركز، وكتابة سرد يغاير فحولة مركزية الرواية الحداثية (...) وخلخلة الثابت وخلق المختلف»[17]. انطلاقا مما تقدم سنحاول رصد موضوعات الهامش الموجودة في رواية « نادي الصنوبر» ومدى تجلياتها فيها، وكشف العلاقة بين ثنائية المركز والهامش من خلال استخراج الثنائيات المتولدة منها ومحاولة الوقوف عند مدلولاتها.

3. تجليات المركز والهامش في رواية" نادي الصنوبر":

«نادي الصنوبر» هي المنجز الروائي الثاني للروائية الجزائرية ربيعة جلطي الذي تصدرت من خلاله « قائمة أفضل عمل روائي في الجزائر وذلك وفق استفتاء جائزة الرواية العربية »[18]، إذ حاولت من خلالها تسليط الضوء على المجتمع الطرقي خاصة ومساءلة قضايا المجتمع الجزائري عموما، وتعريته بكل أبعاده التاريخية والدينية والسياسية والثقافية. كما طرحت إشكالية الهامشية المتمثلة في الهامش الاجتماعي والهامش الجغرافي، بأسلوب روائي قوامه التكثيف الموضوعاتي وبلغة شاعرية مزجت فيها الذات بالآخر وتفاعلت معه واختزلت من خلالها علاقة الطرقي بغيره العربي. كما أنها نص متمرد على الأطر التقليدية للكتابة الروائية الجزائرية المعاصرة؛حيث إن الباحث/ القارئ للرواية «نادي الصنوبر» لا يتردد في ملاحظة مدى خروجها عن المألوف وتوجهها نحو ثقافة الهامش المتمثلة في ثقافة المجتمع الطرقي فهي رواية هامشية تطرقت للهامشي والمسكوت عنه ، وكذا في كيفية تقسيمها للمتن الروائي على شكل أبواب، فقد انسحبت الرواية على إحدى عشرة بابا لكل باب عنوان وتصدير ساعدنا في إقتحام عوالم المتن الروائي. وقد خصت كل شخصية روائية بباب من هاته الأبواب تتحدث فيه عن نفسها، محاولة بذلك أن تجعل صوت المهمش المكتوم صوتا مسموعا لأن «قدرة الهامش على التكلم هي محاولة لإدراك مدى قدرة هذا الغائب أن يسمع صوته من داخل الغياب»[19].

4. موضوعات الهامش في الرواية "نادي الصنوبر":

« نادي الصنوبر» تتحدث عن المسكوت عنه والمهمش في حياة المجتمع الطرقي خاصة والجزائري عامة. فقد انفتحت على الطوارق هذا العالم المنسي والمجهول بالنسبة للكثيرين، والمغيب عن المشهد الأدبي والروائي خاصة الجزائري منه. لكن الجدير بالتنبيه إليه بداية هو أن الروائية ربيعة جلطي ليست أول من تطرق إلى المجتمع الطرقي في الرواية العربية فقد سبقها إلى ذلك الأديب والروائي الليبي إبراهيم الكوني الذي جسد نوعا من الكتابة المسكونة بهاجس الهامش فقد كرس جل أعماله الروائية من أجل تسليط الضوء على هوية المجتمع الطرقي «فالكوني ينتمي إلى مجموعة بشرية مهمشة الطوارق داخل بلد مهمش ثقافيا (ليبيا) من قبل هامش يعتبر نفسه مركزا داخل الدائرة

العربية(المشرق)»[20].وعليه فقد سبق الكوني ربيعة جلطي في استثمار هذه الفئة المهمشة من المجتمع في الكتابات الروائية العربية.

1.4. الطوارق المجتمع المهمش:

يعد المجتمع الطرقي الموضوع الهامشي الأساس في الرواية، وعليه سنحاول أولا التعرف على هذا المهمش الذي جرى إقصاؤه.

"الطوارق"هم قبائل بربرية وبدو رحل تستوطن الصحراء الكبرى، ينتشرون « مابين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية مع موريتانيا إلى حدود السودان مرورا بشمال مالي وشمال النيجر وشمال تشاد وجنوب غربي ليبيا وجنوب شرقي الجزائر.كما تنتشر مجموعات منهم ببوركينافاسو ونيجيريا»[21]. وقد اختلف في سبب تسميتهم « فمن قائل أن سبب تسميتهم بالتوارك لأنهم تركوا طريق الهداية، ومن قائل سموا بالطوارق نسبة إلى طرقهم الصحراء وتوغلهم فيها.ومن قائل أن سبب التسمية هو انتسابهم إلى طارق بن زياد...»[22]. والطوارق مسلمون ولغتهم بربرية فهم « شعب مسلم من أصل سامي احتفظ بهويته الحضارية الأصلية و(التماشك) لغته الوطنية وحروف هذه اللغة تسمى (التافيناغ) تجعل منه أحد الشعوب الإفريقية النادرة التي تمتلك أبجدية نظيفة يرجع وجودها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح تقريبا»[23].

يمثل الطوارق في الرواية – موضوع الدراسة– دور المهمش الذي جرى إقصاؤه منذ المرحلة الكولونيالية؛ حيث إنه «لم تعرف أيا من القضايا ذات الطابع الإنساني تجاهلا ولا تهميشا ولا مبالاة، كما هو الشأن بالنسبة للمسألة الطوارقية تلك الفئة(...)التي قاومت بكل السبل للبقاء حرة متمتعة باستقلال الشخصية ومتشبثة بهويتها وعاداتها وتقاليدها. مقاومة الطوارق للانسلاخ لم تكن لترضي المستعمِر(...) فعقدت الكولونيالية الفرنسية على تشتيت الشعب الطوارقي بتقسيمه بين مستعمراتها، ليصبح أقليات مهمشة ومحتقرة ومقموعة، لا قوة لها سهلة الذوبان»[24]، تقول ربيعة جلطي على لسان عذرا الطرقية: «اعتقد الاستعمار الفرنسي كما تروي نساؤنا أنه كسر شوكتنا، بعد أن تسلل إلينا في صحرائنا حاصرنا وأضعف قبائلنا، وشتتنا وألحقنا بالقرى والمدن، تخطيطا منه كي ننصهر

وننحل في طريقة الحياة التي يفرضها على الآخرين»[25]. وقد استمر نفيه وإقصاؤه حتى ما بعد الكولونيالية «من قبل جبهة التحرير الوطني الحزب الوحيد وجنرالات الجزائر، الذين وجدوا هذه القبائل الثائرة ضد كل من يهدد هويتها، خطرا على إيديولوجيتهم ومصالحهم المتمثلة في احتكار مداخيل تصدير البترول والغاز الذي توجد أكبر حقولهما في الجنوب الجزائري. حيث عملت جبهة التحرير ذات المرجعية القومجية، منذ ما يسمى بالاستقلال على حصر الطوارق بالجنوب وفرض الأحكام العرفية التي لا زالت مفروضة إلى اليوم»[26]. فتقول عذرا الطرقية: «في صحرائي أيضا نفط غزير أو هكذا يشاع منذ أزمان ..إلا أننا نسمع به ولا نراه. تقول الجدات التارقيات اللواتي لا يخطئن ظنهن ولا تخيب فراستهن، إن النفط هذا وما يشبهه من الخيرات الراقدة تحت الرمل، هو ما جذب الفرنسيين إلى استعمار البلد والتوغل في صحرائه، حتى أنهم بمفاوضات خروجهم من باقي البلد بعد الاستقلال، حاولوا التفاوض مع الحكام الجدد، لبقاء الصحراء وحدها تحت سيطرتهم»[27]. وقد نجح فعل التهميش المسلط على الطوارق في طمس هويتهم وثقافتهم، ويمثل المقطع السردي الآتي كيف أن الفرد الجزائري يجهلهم ولا يعرف عنهم الكثير: « ذهبت ذات يوم عند بائع الأدوات الموسيقية في أكبر شارع في المدينة، محل ضخم وفاخر يحتوي على عدد كبير من الآلات الموسيقية الجميلة فقلت له بثقة: أريد آلة الإمزاد من فضلك..! ، لم يتردد أن يتفرس في وجهي عن قرب ثم ضحك مني هازئا هازا رأسه الضخمة يمنة ويسرة: واش هذا.. عمري ما سمعت به!؟؟»[28].

لكن رغم كل ما تعرض له الطرقي من تهميش وإقصاء إلا أنه لم يفشل في صنع ثقافة مقاومة كانت السبب في استمراره وبقائه، وقد تحدثت ربيعة جلطي في «نادي الصنوبر»عن طوارق الجزائر فعرفتنا بثقافتهم وبعاداتهم وتقاليدهم التي تميزهم عن أي مجتمع آخر «ذلك أن قراءة حضور المهمشين وطريقة تقديمهم، تحتاج إلى فهم عميق لجدل الثقافة المهمشة والثقافة المهيمنة»[29].

2.4. المركز والهامش في رواية «نادي الصنوبر»:

إن المركز والهامش ثنائية «تكرس الأول وتلغي الثاني ودائما ما تجمع بين ذاتين تكونت بينهما علاقة ضدية تنافرية شبيهة بالصراع الأزلي بين الذات والآخر»[30]، ولقد تجلت علاقة المركز والهامش في رواية «نادي الصنوبر» من خلال ثلاثة ثنائيات ضدية كبرى، يمكننا عرضها تباعا:

1- مركزية الشمال/ هامشية الجنوب:

يرى أحد النقاد أن « الشمال منذ هل العصر الحديث لم يعد جهة كغيره من الجهات الأربع بل أمسى المصب للأنهر جميعا ونقطة المركز لدوائر العالم قاطبة إنه شمال الثورة الصناعية والعقلانية (...) إنه شمال الثورة السياسية (...) شمال الرأسمالية الغربية (...) ولأن الشمال لم يعد موطنا لحضارة، بل غدا موطن الحضارة(...) صار من المحتم أن يندفع الجنوب باتجاه الشمال، منذ غدت حضارة الشمال حضارة العالم»[31]، وعليه يمثل الشمال الغرب ويمثل الجنوب العرب، هذا الأخير الذي مارس الشمالي سلطته وفرض هيمنته عليه في شتى مجالات الحياة وجعله ينبهر به حتى أنه أصبح « بضاعة خاضعة لقانون السوق، وبالتالي أصبحنا جزءا من نظام الحاجات الذي يقوم عليها الاقتصاد التسويقي»[32] ، ويمثل المقطع السردي الآتي: «كم من متعة فائقة تجدها سعدة وهي تحدث عذرا بهدوء وأناقة عن أثاث قصرها المستقدم من إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وعواصم أخرى(...)وقفت سعدة عند الآلات الكثيرة التي تملأ صالة حمامها الخاص المتشكل من غرف متعددة كل واحدة متخصصة في الاعتناء بجزء من جسدها، يشرف عليها متخصصون أجانب»[33] كيف أن العربي باع أغلى شيء يملكه (النفط) من أجل أن يعيش حياة الترف والبذخ وكيف تخلى أن أصله و نزع ثوبه من أجل «فناجين القهوة ،وملاعق السكر، وقنينات إرضاع الأطفال.النفط يحشو الأسرة ووسائد الليل،(...) يلون النظارات والعدسات اللاصقة والورد الاصطناعي ويتسرب إلى كل شيء»[34]. وبالتالي دائما ما كان هذا العربي تابعا للغربي ومنبهرا بحضارته وبمظاهرها لأنه متخلف بالنسبة له ويرى نفسه كذلك.

ومن أجل تقويض فكرة المركزية الغربية التي جعلت العالم ينقسم إلى ثنائية الشمال/الجنوب حاولت ربيعة جلطي الالتفات إلى الهامش ورد الاعتبار لهذا الأخير من خلال توظيف الصحراء في الرواية بوصفها مركزا وإماطة اللثام عن هذا المهمش .

2- مركزية المدينة/هامشية الصحراء:

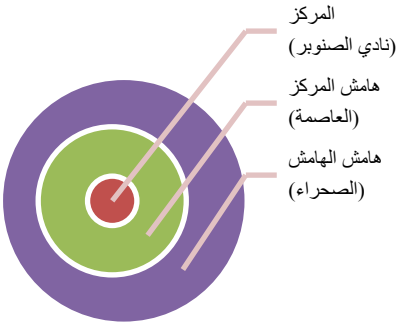
لا يتردد الباحث/القارئ للرواية في ملاحظة مدى الحضور القوي لثنائية المدينة /الصحراء، فهي تتجلى لنا منذ صفحة الغلاف الخارجي؛حيث إن عنوانها يحيلنا إلى مكان في الجزائر العاصمة (نادي الصنوبر) الذي يمثل منطقة ساحلية في الجزائر العاصمة وهي عبارة عن محمية خاصة للوزراء ورجال الأعمال ولكل من يشتغل منصبا مهما في السلطة، معنى ذلك أن ربيعة جلطي قد انطلقت من نادي الصنوبر (من المركز) مركز النظام والسلطة لتنقلنا بعد ذلك إلى عوالم الصحراء (إلى الهامش) من خلال البطلة عذرا التي انتقلت من العيش في الصحراء إلى المدينة، تقول ربيعة جلطي: « الحاجة عذرا ابنة الطوارق، جاءت إلى المدينة الساحلية الرطبة ذات صيف، آتية من أقصى الجنوب رفقة خليجي وسيم، حضر وبالصدفة حفلة طلاقها، ونتيجة لعلاقاته القوية بذوي النفوذ في البلد، أسكنها حيا راقيا لا يصل إليه العاديون»[35] ؛ حيث تعمل البطلة من خلال انتقالها هذا على زحزحة هذا الهامش إلى المركز ذلك أن القارئ المتتبع لصفحات الرواية يلاحظ كيف أن هذا الهامش (الصحراء) يتحول إلى مركز في المتن الروائي وما كان مركزا (نادي الصنوبر) يصبح هامشا. وعليه فقد اشتغلت ربيعة جلطي على هذه الثنائية في رواية «نادي الصنوبر» لأنها تحاول تفكيكها من خلال تقويض مركزية المدينة ورد الاعتبار للمهمش الصحراء. فالمدينة والصحراء (البادية) ثنائية تكرس الأول وتلغي الثاني فالصحراء مهمشة لأنها لا تحتوي على عوامل التطور بوصفها حاملة لأوصاف البدائية على خلاف المدينة المركز التي تمثل الحضارة والتطور. وهي ثنائية ناتجة عن «فكرة المركزية مركزية الدولة والسلطة التي تتخذ لنفسها مكانا جغرافيا يسمى العاصمة ويصبح كل ما يحيط به من أماكن وبيئات جغرافية بمثابة الأطراف والهوامش»[36].

مثلت المدينة /المركز في الرواية مكانا ونقطة اتجاه لكل مهمش في المجتمع يقول مسعود عنها : «العاصمة وما أدراك ما العاصمة»[37]،فالجميع يقصدها إما بحثا عن العمل (زوخا تبحث عن عمل يحفظ كرامتها)، أو عن الشهرة (نسيمة تريد تحقيق حلمها بأن تصبح فنانة مشهورة)، أو عن الزواج (باية تحلم بالزواج لأنها تخاف العنوسة) .

لكن المفارقة تكمن في أن هذه المدينة المركز تتحول بذاتها إلى هامش بالنسبة لمركز أقوى منها متمثلا في نادي الصنوبر هذه المحمية الطبيعية التي كانت ملكا لكل المجتمع الجزائري ثم تحولت إلى محمية خاصة للوزراء ورجال الأعمال والنواب وأصبحت محرمة على المواطن العادي، بموجب المرسوم التنفيذي رقم (92/487) المؤرخ في 28 ديسمبر 1992 والمتضمن إنشاء إقامة تابعة للدولة، يقول عنها مسعود: « اقترحت علي بصدر رحب الانتقال إلى العاصمة للبقاء في فلتها بنادي الصنوبر وما أدراك ما نادي الصنوبر»[38] ويصفها قائلا:«خمسون هكتارا اقتطعت من جنة الله العليا وأنزلت إلى الأرض السفلى،فيها روض عاطر يسر الخاطر ويبهج الناظر (...)وفي الزمن الثاني خرج منها المعمرون دخل جنتها الموعودة منعمون آخرون، بعد أن توسعت جدا وأصبحت نعيما كل ما فيه يشع منه السرور والحبور، محصنة بالأسوار العالية،محروسة آمنة، نائمة في العسل يقطنها علية القوم وأسيادهم،(...) مدينة داخل مدينة، بل وطن لهم داخل وطن لآخرين»[39]. وبالتالي أصبحنا إزاء مدينتين داخل مدينة واحدة مدينة نادي الصنوبر التي غدت رمزا للفوارق الطبقية ويمثلها الجناح السياسي المحمي الذي لا يهتم إلا بمصالحه وسعادته. والمدينة العاصمة التي تحولت هي ومن يقطنها إلى هامش وعليه فقد اختارت ربيعة جلطي نادي الصنوبر هذا المكان لتكشف من خلاله الفساد السياسي و هيمنة السلطة السياسية على المجتمع الجزائري عامة والطرقي منه تحديدا.

من خلال ما سبق نلاحظ أن رواية "نادي الصنوبر" أثناء محاولتها تفكيك ثنائية المركز والهامش وجدت أنه يمكن للمركز أن يتحول إلى مركز أقوى منه وبالتالي أصبح لدينا مركز (نادي الصنوبر) وهامش للمركز(المدينة/العاصمة) وهامش للهامش (الصحراء)، وهذا ما يبينه لنا الرسم التوضيحي

الآتي:



-رسم توضيحي لثنائية المدينة /الصحراء-

3- مركزية المرأة في الصحراء/ هامشية المرأة في المدينة:

إن الروائية ربيعة جلطي من خلال روايتها «نادي الصنوبر» وتوظيفها للمرأة في المتن الروائي - فالرواية صوت نسوي بامتياز- تحاول البحث عن الأسباب التي أدت إلى تهميش المرأة في المجتمعات العربية عامة، وسلب مكانتها الأولى الطبيعية حيث كانت متساوية مع الرجل في كل شيء وتشويه صورتها. وأيضا في تشويه العلاقة بينها وبين الرجل.

انطلقت ربيعة جلطي من المكانة التي كانت تحتلها المرأة قديما في المجتمعات البدائية، أين كانت الأنثى تمثل « قيمة إنسانية واجتماعية وفلسفية أكثر من الذكر، وأن الإله القديم كان أنثى وأنه قبل نشوء الأسرة الأبوية كان المجتمع البدائي أموميا وكانت الأم هي الأصل وهي العصب وهي التي ينسب إليها الأطفال»[40]، فاختارت بطلة روايتها "عذرا ابنة الطوارق" التي تنتمي إلى المجتمع الطرقي الذي مازالت المرأة فيه تتمتع باستقلالية كبيرة. فهي ابنة الملكة تينهينان وحفيدتها. ذلك أن المجتمع الأمومي الذي تنتمي إليه تعيش فيه المرأة وهي تكاد تكون مقدسة، تقول الحاجة عذرا: «المرأة في أعرافنا منذ بدء التاريخ، هي أغلى الكنوز، تمثل الشرف المجسد، لا تنهر ولا تقهر، وكرامتها لا تهدر، والمساس بقيمتها إدانة لجوهر وجود الطوارق، ولتاريخهم وكينونتهم، وهي الذاكرة العتيقة الحية التي لا تفوتها شاردة ولا واردة، النساء عندنا الحافظات الصادقات لكل تفاصيل حياتنا عبر الأيام والسنين والقرون»[41]. نلاحظ من خلال هذا المقطع السردي كيف أن المرأة تمثل النواة الأساسية في المجتمع

الطرقي والركيزة التي يقوم عليها،وهو ما جعلها تنفرد ببعض الخصوصيات التي تميزها عن غيرها من النسوة العربيات سوى لأنها سليلة تينهنان « التي منذ ألف عام قبل الميلاد، جمعت بين الجمال وحكمة القيادة، أليست هي من وضع على رأسها تاج أول ملكة على قبائل الطوارق، بعد أن توحدوا تحت ظلها الوارف، فقادتهم بحكمة على الرغم من الظروف القاسية، ولم تتردد في حمل السيف كأية فارسة تتقدم جيشها وتقوده دفاعا عن وجود قومها وفلسفتهم في الحياة وشرفهم.. إنها الأنثى تينهينان»[42]. لما عرف الغرب /الشمال بمكانة المرأة في المجتمعات العربية وأحس بقوتها وخطورتها قام بوضع خطة معادية لها من ضمنها إجبار« ملايين النساء على أن يفقدن شخصيتهن، ومن أجل هذا نستخدم الأزياء، والكيمياء، والإعلان والملايين ونصنع من الفتيات هن من الاتصاف بالجمود بحيث يستبعد كل خطر»[43]. وعليه فالمرأة العربية من خلال انبهارها بالغرب و تخليها عن تراثها وعاداتها وتقاليدها جعلت من نفسها هامشا، تقول عذرا عن سعدة أخت عبده: « جميلة،بأنف صغير قُد بأصابع ومبضع جراح بارع، وشفاه ممتلئة حتى التمام وخدود مرفوعة وكأنها مشدودة بصمغ، وخال اصطناعي يتربع بشموخ عند أطراف أنفها...»[44]، فأمام هذا التشويه الذي عرفته المرأة العربية، تقول ربيعة جلطي: «كانت عذرا الطارقية من حين لآخر تسهو وتغيب، وتبتعد باحثة عن الصحراء فيها، وفي داخل هذه المرأة المقابلة لها، التي نفضت عنها ثوب الشمس والرمل بسرعة، ومن زمن قريب، طالما سمعت عبده يسميه زمن النفط»[45]، لا زالت المرأة الطرقية تحافظ على شخصيتها القوية التي ورثتها من أمها وجدتها تينهنان فلم يمسها التشويه الذي مس المرأة العربية، تقول أيضا: «عدلت من ثوبها الطارقي فوق كتفيها، لباسها الذي لم تتخل عنه أبدا ولم تغيره، ولم تفتنها أشكال العباءات الخليجية الأنيقة، الجميلة، الثمينة، التي يشتريها عبده ويهديها لها»[46]، وتقول عذرا نفسها: «نظرت إلى أظافري.. كانت رسومات الحناء عليها قد اضمحلت قليلا، لم تعد ناصعة الحمرة بهجتها...الحناء جزء من أنوثة الطارقيات.. نعم..أنوثة تينهينان، تلك الأنوثة الأسطورية الرمزية التي ورثتها نساؤنا عن ملكتنا تينهينان»[47]. وعليه فإن العالم الشمالي/ الغربي التكنولوجي المجرد من الإنسانية ومخططه المعادي للمرأة هو الذي جعل المجتمعات العربية تتحول من المركزية الأنثوية إلى المركزية الذكورية هذه الأخيرة

التي «امتدت في الحضارة الغربية من الأسرة إلى الدولة إلى الإنسانية جمعاء فكانت أعلى صورها في الأشكال الاستعمارية والامبريالية»[48].

وأرجعت السبب في ذلك أيضا إلى طبيعة البيئة والمكان الذي تعيش فيه المرأة، فقد أشارت إلى التأثير السلبي للمدينة على المرأة وعلى حالتها النفسية تحديدا ، تقول عذرا الطرقية:« أنا عذرا بنت الطوارق أشعر وسط هذا الركام من البشر المتعبين بهواجسهم، أنني حرة الروح طليقتها، خفيفة الحمل وسط نساء هذه المدينة، مثقلات القلوب بأشياء لا تدرك وبعيون حزينة بائسة على الرغم مما يتظاهرن به»[49].وأيضا على الرجل الذي أصبح «يستمد قيمة رجولته وذكورته من عناصر خارجة عنه، المال والجاه»[50] على عكس الرجل الطرقي «الرجل الأزرق كل رجولته وقوته وجماله وفتنته تنبع مما يملكه في ذاته، من كرمه، من مروءته، من ظله المنسحب بسخاء على الرمل، نحت الشموس المتلاحقة، من شجاعته وإقدامه»[51] وبالتالي لم تتحول المرأة من المركز إلى الهامش ولم ينزع الرجل منها «سيادتها إلا عن طريق الاقتصاد والسيطرة على الملكية والإنتاج»[52]. وهو ما أكده لنا انتقال عذراء الطرقية من الصحراء إلى المدينة، حيث أفقدها مكانتها وزحزحها إلى الهامشية، فالمرأة الطرقية ملكة و«الملكات لا يقنعن بالأنصاف وفي قرارة نفس عذرا سليلة الملكة تينهينان لا تغفر لنفسها أن تكون أقل منها، بل من واجبها أن تكون في المستوى والصورة المثلى»[53] لذلك قررت البطلة عذرا الطرقية العودة إلى الصحراء لأنها لا تستطيع أن تكون عذرا إلا في مجتمعها الأمومي الذي مازال لم يلمسه التشويه الذي لمس المجتمعات العربية.

4.خاتمة:

لعل ما يمكن الركون إليه في ختام هذه الدراسة هو الإقرار أن ثنائية المركز والهامش تعد نتيجة للمرحلة الكولونيالية التي قسمت العالم إلى مركز وهامش فهي ثنائية ضدية تعمل على تكريس الأول وإلغاء الثاني، وقد حاولت الدراسات الثقافية الاهتمام بهذا الأخير وإعادة الاعتبار إليه من خلال تقويض مركزية المركز.كذلك فإن ربيعة جلطي قد حاولت من خلال روايتها "نادي الصنوبر" تفكيك أفكار المركز، وكتابة سرد يغاير فحولة مركزية الرواية الحداثية انطلاقا من تناولها للمجتمع الطرقي الذي عانى ولا زال يعاني من التهميش.

وأخيرا يمكننا القول أنه يمكن أن تكون البطلة "عذرا" هي الصحراء نفسها وهي المجتمع الطرقي نفسه المهمشين، و هي كل هامش فقد مركزيته ومكانته أمام التطور الحاصل وأصبح عالما مهمشا أو منقرضا على حد تعبيرها.

5.الهوامش:

[1] كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر: جمال بلقاسم، رؤية للنشر، مصر، ط1، 2018م،ص:195.

[2] يوسف عليمات: النسق الثقافي قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1،2009م، ص: 01.

[3] المرجع نفسه، ص:02.

[4] هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية، رؤية للنشر، مصر،ط1، 2005م، ص:97.

[5] آمنة بلعلى، ليلة أجعود: المهمش في الرواية الجزائرية، من منظور البيولوجيا السياسية لميشال فوكو، مجلة الخطاب، مخبر تحليل الخطاب، جامعة تيزي وزو، الجزائر، مج 14، ع 2 ،2019، ص:213.

[*] ربيعة جلطي روائية وشاعرة من مؤلفاتها:..وحديث في السر– من التي في المرآة ؟!– حجر حائر–الذروة. ينظر: ربيعة جلطي: نادي الصنوبر (رواية)، منشورات ضفاف– منشورات الاختلاف، لبنان–الجزائر، ط2،1439هـ– 2017م ،(الغلاف الخلفي للرواية).

[6] المصدر نفسه.

[7] عمر عبد الواحد: بلاغة التهميش السياسي– الشيعة أنموذجا (مقاربة ثقافية)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، مج 3/25، ع 99، ربيع 2017، ص: 196.

[8] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[9] المرجع نفسه، ص: 199.

[10] جيجغ صورية: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوجي، إشراف: تبرماسين عبد الرحمان،رسالة لنيل شهادة دكتوراه ل.م.د. تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة مُحَمَّد خيضر، بسكرة، كلية الآداب واللغات، 2015– 2016، ص: 19.

[**]ما بعد الكولونالية (Post Colonialism): مصطلح يتناول آثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات «ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى وان مرحلة من الهيمنة تسمى أحيانا المرحلة الامبريالية أو

الكولونيالية، قد حلت وخلفت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معين»:ينظر: بيل أشكروفت: دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، تر: أحمد الروبي،المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2010،ص: 282.

[11] المرجع نفسه،ص:94.

*** الكولونيالية (Colonialism): مصطلح يستعمل في تحديد الشكل المحدد للاستغلال الثقافي الذي تنامى بالتزامن مع التوسع الأوروبي خلال القرون الأربعة الفائتة، ويشير «إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أن ذلك النتاج يشكل في مجمله خطابا متداخلا بالمعنى الذي استعمله (فوكو)لمصطلح الخطاب» ينظر: المرجع نفسه،ص:105.

[12] محسن جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي (الكتابة العربية في عالم متغير واقعها سياقاتها وبناها الشعورية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2005، ص: 71.

[13] سمير خليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي،دار الكتب العلمية للنشر، لبنان، دط، دت، ص: 279.

****التقويض (Deconstruction): هو مصطلح أطلقه الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا على « القراءة النقدية (المزدوجة) التي اتبعها في مهاجمته الفكر الغربي الماورائي منذ بداية هذا الفكر حتى يومنا هذا»: ينظر: سعد البازعي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 3، 2002،ص: 107.

***** دراسات التابع (Subaltern Studies): «قدمت فكرة التابع إلى الدراسات الثقافية من خلال التأثير المعروف لكرامشي داخل هذا الحقل. فقد تكلم عن فكرة الطبقات التابعة التي تعد كجماهير شعبية غير منظمة سياسيا. أما الآن، فهذه المفردة لها ارتباط كبير بنظرية ما بعد الاستعمار من خلال أعمال مجموعة من الكتاب الهنود وتسمى أعمالهم دراسات التابع» كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر:جمال بلقاسم،ص: 105.

[14] ميثاق حسن عطار الركابي: مركزة الهامش في رواية السيد أصغر أكبر لمرتضى كزار، مجلة أوروك للعلوم الإنسانية، جامعة المثنى، كلية التربية للعلوم الإنسانية، العراق، مج 12، ع 1، 2019، ص: 158.

[15] عبد القادر فيدوح: الدراسات المخملية والنقد الثقافي، مجلة كلية الآداب، جامعة ذي الفقار،العراق، ع24، 2017، ص: 119.

[16] زهيرة بولفوس: مضمرات رواية «مقتل بائع الكتب» للروائي العراقي سعد محمد رحيم، مجلة تامرا ، العراق،ع3، حزيران 2018،ص: 68.

[17] هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب ، ص:28.

[18] سمير لخذاري: رواية نادي الصنوبر للكاتبة ربيعة جلطي في الصدارة (الأدب الجزائري يعود إلى الواجهة)، مقال متاح على الشبكة الالكترونية: djazairess.com، اليوم:2019/11/31م، الساعة:00:06سا.

[19] هويدا صالح: المرجع السابق، ص:26.

[20] مرزاقة زياني: مركزية الهامش في أدب ابراهيم الكوني قراءة في رواية ناقة الله، مقال متاح على الشبكة الالكترونية:aswat-elchamal.com، اليوم:2019/11/04. الساعة:14:58سا.

[21] مُحَمَّد السعيد القشاط: التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، ط2، 1989، ص: 17.

[22] المرجع السابق، ص: 27.

[23] نقلا عن المرجع نفسه، ص:35.

[24] علي الانصاري، الطوارق2 الساحل المخيف، كتاب متاح على الشبكة الالكترونية: www.tawalt.com،اليوم: 2019/11/04، الساعة:23:50سا.

[25] ربيعة جلطي: نادي الصنوبر،ص:115.

[26] المرجع السابق، ص:04.

[27] المرجع نفسه، ص:91.

[28] المصدر السابق،ص:12-13.

[29] هويدا صالح: المرجع السابق، ص، 22

[30] خليل سليمة، مشقوق هنية: الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، مجلة مقاليد، ع2،ديسمبر2011م، ص:113.

[31] جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة وأنوثة، دار الطليعة للطباعة والنشر،لبنان، ط4، 1997، ص:143-144.

[32] إدريس مقبول: المدينة العربية الحديثة قراءة سوسيو لسانية في أعراض مرض التمدن، مجلة عمران، ع4/16، ربيع 2016، ص:51.

[33] ربيعة جلطي: نادي الصنوبر، ص: 88.

[34] المصدر نفسه، ص90.

[35] المصدر نفسه، ص: 14.

[36] هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب ،ص:190-191.

[37] المصدر السابق، ص42.

[38] المصدر نفسه،ص42.

[39] المصدر نفسه،ص43.

[40] نوال السعدي: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،لبنان، ط2، 1990، ص:155.

[41] المصدر السابق،ص111.

[42] المصدر نفسه،ص109.

[43] بيير داكو: المرأة بحث في سيكيولوجية الأعماق، تر: وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا، دط، 1983، ص: 22.

[44] المصدر السابق، ص88.

[45] المصدر نفسه،ص88-89.

[46] المصدر نفسه، ص91.

[47] المصدر نفسه، ص108.

[48] يمنى طريف الخولي: النسوية وفلسفة العلم، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع2، مج34، أكتوبر-ديسمبر 2005، ص10.

[49] المصدر السابق،ص 105.

[50] المصدر نفسه، ص113.

[51] المصدر نفسه، ص114.

[52] نوال السعدي: المرجع السابق، ص721.

[53] المصدر السابق،ص84.

6.المراجع:

(1)الكتب:

1- بيير داكو: المرأة بحث في سيكيولوجية الأعماق، تر: وجيه أسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا، دط، 1983

2– بيل أشكروفت: دراسات ما بعد الكولونيالية (المفاهيم الرئيسية)، تر: أحمد الروبي،المركز القومي للترجمة، مصر، ط1، 2010.

3– جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة وأنوثة، دار الطليعة للطباعة والنشر،لبنان، ط4، 1997

4– ربيعة جلطي: نادي الصنوبر (رواية)، منشورات ضفاف– منشورات الاختلاف، لبنان–الجزائر، ط2 2017،

5– سعد البازعي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 3، 2002

6– سمير خليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي،دار الكتب العلمية للنشر، لبنان، دط، دت

7– كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر: جمال بلقاسم، رؤية للنشر، مصر، ط1، 2018

8– محسن جاسم الموسوي: النظرية والنقد الثقافي (الكتابة العربية في عالم متغير واقعها سياقاتها وبناها الشعورية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 2005

9– نوال السعدي: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،لبنان، ط2، 1990.

10– هويدا صالح: الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيوثقافية، رؤية للنشر، مصر،ط1، 2005.

11– يوسف عليمات: النسق الثقافي قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2009،1.

(2): المجلات:

1– مجلة الخطاب، جامعة تيزي وزو، الجزائر، مج 14، ع 2 ،2019.

2– مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، مج 3/25، ع 99، ربيع 2017.

3– مجلة أوروك للعلوم الإنسانية، جامعة المثنى، العراق، مج 12، ع 1، 2019.

4– مجلة كلية الآداب، جامعة ذي الفقار،العراق، ع24، 2017.

5– مجلة تامرا ، العراق، ع3، حزيران 2018.

6– مجلة مقاليد، ع2،ديسمبر 2011.

(3): **الرسائل الجامعية:**

1– جيجغ صورية: المركز والهامش في روايات عز الدين جلاوجي، إشراف: تبرماسين عبد الرحمان،رسالة لنيل شهادة دكتوراه ل.م.د. تخصص: أدب حديث ومعاصر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015- 2016.

(4): **المواقع الالكترونية:**

1– aswat-elchamal.com

2– djazairess.com

3– www.tawalt.com